(٤٦١)

(السيد مُحمَّد بن عبد اللَّه بن الحُسين ابن الإمام القَاسِم بن مُحمَّد)

ولد بمدينة ذمار، وأخذ علم الفروع عن أهلها، ثم انتقل إلى صنعاء وقرأ في فنون عدة وانتهت إليه رياسة الفتيا بها، وصار أحد أكابر آل الإمام المنظور إليهم في العلم والرياسة وجلالة القدر. ولما كان إلى دولة الإمام المتوكل على اللَّه القاسِم بن الحُسين خرج عن طاعته جماعة من أكابر آل الإمام، وكان صاحب الترجمة عظيمهم وزعيمهم والمُؤهّل للخلافة فيهم فخرج معهم مع كون الإمام محسناً إليه! مكرماً له معظماً لشأنه. ولما بلغ إلى بلاد أرحب حصل الاختلاف بينه وبين الخارجين معه وأفصحوا له بما يدل على أنهم قد رشّحوا غيره للخلافة، فتأسف على مفارقته، لأوطانه والتهب لذلك ومرض (فمات) هنالك، وكان ذلك في سنة (١١٣٦) ستٍّ وثلاثين ومائة وألف. وله نظم حسن، فمنه القصيدة التي طارح بها القاضي عليّ العنسي مطلعها: [من البسيط]

كَـرِّر، أحـاديـثَ سَـلْـعٍ لـي ومَـنْ فـيـهِ مِـنَ الأحـبَّـةِ فـيـمـا أنـتَ رَاويـهِ

وله مكاتبات إلى صاحب نسمة السحر أوردها في ترجمته.

(٤٦٢)

(مُحمَّدُ بن عبد اللَّه بن سَعيد بن عبد اللَّه بن سَعيد بن عليّ بن أحمد التِّلْمِسَاني القُرطبيّ الأصل)[1]

كان سلفه نزلوا طُلَيْطُلة ثم لُوسة ثم غَرْنَاطَة. ولد في الخامس والعشرين من رجب سنة ٧١٣ ثلاث عشرة وسبعمائة بلوسة، وكان سلفه قديماً يعرفون ببني وزير، ثم صاروا يعرفون ببني خطيب نسبة إلى سعيد جدّه الأعلى. واشتهر صاحب الترجمة بلسان الدين بن الخطيب. ونشأ فقرأ القرآن والعربية على أبي القاسم بن جُزي، وأبي عبد اللَّه بن النجار. وسمع من أبي عبد اللَّه بن جَابر وجماعة عدة، وتأدب بابن الجناب، وأخذ الطب والمنطق والحساب عن يَحْيَى بن هذيل الفيلسوف. وبرز في الطب وتولّع بالشعر، فبرع فيه. وترسّل فأجاد وفاق أقرانه، واتصل بالسلطان أبي الحجّاج يُوسف بن أبي الوليد بن نصر الأحمر فمدحه وتقرّب منه واستكتبه من تحت

(١) ترجمته في: الدرر الكامنة: ٣/ ٤٦٩؛ شذرات الذهب: ٦/ ٢٤٤؛ كشف الظنون: ١٥، ٩٧، ٩٢٥؛ إيضاح المكنون: ١/ ٧٣، ١٨٠، ٢١٠؛ هدية العارفين: ٢/ ١٦٧؛ معجم المؤلفين: ١٠/ ٢١٦؛ الأعلام: ٦/ ٢٣٥.

يد أبي الحسن بن الجناب إلى أن مات أبو الحسن في الطاعون العام، فاستقل بكتابة السرّ وأضاف إليه رسوم الوزارة، واستعمله في السفارة إلى الملوك واستنابه في جميع ما يملكه. فلما قتل ابن الحجّاج سنة (٧٥٥) وقام ابنه مُحمّد استمر ابن الخطيب على وزارته، واستكتب معه غيره. ثم أرسله إلى عيان المرسي بفاس ليستنجده فمدحه فاهتزَّ له وبالغ في إكرامه، فلما خُلِع مُحمَّد، وتغلّب أخوه إسماعيل على السلطنة قبض على صاحب الترجمة بعد أن كان أمنه، واستأصل نعمته، ولم يكن بالأندلس مثلها من المستغلات والعقار والمنقولات، وسجن واستمر مسجوناً إلى أن وردت شفاعة أبي سالم بن أبي عيان فيه، وجعل خلاصه شرطاً في مسالمة الدولة. وكذلك خلاص السلطان مُحمَّد بن أبي الحجّاج من السجن، فخلصا وانتقلا إلى أبي عيان فاستقرّا في مدينة فاس، وبالغ في إكرامهما. ثم نقل صاحب الترجمة إلى مدينة مراكش فأكرمه عمالها، ثم شفع له أبو سالم مرة ثانية فَرُدّت عليه ضياعه بغرناطة إلى أن عاد السلطان مُحمَّد إلى السلطنة فقدم عليه صاحب الترجمة بأهله فأكرمه وقلّده ما وراء بابه، فباشر ذلك مقتصراً على الكفاية راضياً بالدون من الثياب هاجراً للتأنق في جميع أحواله صادعاً بالحق. وعمّر زاوية ومدرسة وصَلُحت أمور سلطانه على يده، فلم يزل على ذلك إلى أن وقع بينه وبين عُثمان بن يَحْيَى بن عُمر شيخ القراءات منافرة أدت إلى نفي عثمان المذكور في شهر رمضان سنة (٧٦٤) فظنَّ ابن الخطيب أن الوقت صفا له وأقبل سلطانه على اللهو وانفرد هو بتدبير المملكة فكثرت القالة فيه من الحسدة واستشعر في آخر الأمر أنهم سعوا به إلى السلطان، وخشي البادرة فأخذ في التحيل في الخلاص وراسل أبي سالم صاحب فاس في اللحاق به، وخرج مظهراً أنه يريد تفقد الثغور الغربية، فلم يزل حتى حاذى جبل الفتح فركب البحر إلى سبتة، ودخل مدينة فاس سنة (٧٧٣) فتلقاه أبو سالم وبالغ في إكرامه وأجرى له الرواتب فاشترى بها ضياعاً وبساتين. فبلغ ذلك أعداءه بالأندلس فسعوا به عند السلطان مُحمَّد حتى أذن لهم في الدعوى عليه بمجلس الحاكم بكلمات كانت تصدر منه وتُنسب إليه، وأثبتوا ذلك وسألوه الحكم به فحكم بزندقته وإراقة دمه. وأرسلوا صورة المكتوب إلى فاس، فامتنع أبو سالم، وقال هلا أقمتم ذلك عليه وهو عندكم. فأما ما دام عندي فلا يوصل إليه، فاستمر على حالته بفاس إلى أن مات أبو سالم، فلما تسلطن أبو العباس بعده أغراه به أعداؤه فلم يزالوا به حتى قبض عليه وسجن، فبلغ ذلك سلطان غَرْنَاطة فأرسل وزيره أبا عبد اللَّه إلى أبي العبَّاس بسببه فلم يزل به حتى أذن لهم في الدعوى عليه عند القاضي فباشر الدعوى أبو عبد اللَّه في مجلس السلطان فأقام البينة. بالكلمات التي أثبتت عليه فعزره القاضي بالكلام ثم بالعقوبة ثم بالسجن، فطرق عليه السجن بعد أيام ليلاً فخنق وأخرج من الغد فدفن، فلما كان من الغد وجد على شفير

قبره محروقاً فأعيد إلى حفرته وقد احترق شعره واسودت بشرته وذلك في سنة ٧٧٦ ستٍّ وسبعين وسبعمائة. وتكلّم عند أن أرادوا قتله الأبيات التي منها: [من المتقارب]

فَقُلْ لِلعِدَا ذهبَ ابن الخطيبِ وفاتَ فَسُبحانَ مَنْ لا يفوتُ
فَمَنْ كانَ يَشْمَتُ مِنْكُم بهِ فَقُلْ يَشْمَتُ اليومَ مَنْ لا يموتُ

وذكر الشيخ مُحمَّد القصباني أن ابن الأحمر وجّهه رسولاً إلى ملك الإفرنج، فلما أراد الرجوع أخرج له ملك الإفرنج كتاباً من ابن الخطيب بخطه يشتمل على نظم ونثر في غاية الحسن والبلاغة فأقرأه أياه فلما فرغ من قراءته قال له: مثل هذا يقتل وبكى حتى بلّ لحيته وثيابه. ومن مصنفات صاحب الترجمة (التاج) في أدباء المائة الثامنة، و(الإكليل الزاهر) وهذان الكتابان يشتملان على تراجم أدباء المغرب وجميع ما فيهما من الكلام مسجوع. وله (طرفة العصر في دولة بني نصر) ثلاثة مجلدات، وديوان شعره في مجلدين، و(حمل الجمهور على السنن المشهور)، و(اليوسفي) في الطب مجلدان، و(نفاضة الجراب في علالة الاغتراب) أربعة أسفار، و(رقم الحلل في نظم الدول) أرجوزة، ونثر لو جمع لزاد على عشرة مجلدات، ومن نظمه: [من الكامل]

ما ضَرَّني أنْ لم أجئ مُتقدّماً السَّبقُ يُعرفُ آخرَ المِضْمارِ[1]
وَلَئِنْ غَدَا ربعُ البَلاغةِ بَلْقَعاً فَلرُبَّ كنزٍ في أساسِ جدارِ[2]

ومن نظمه: [من السريع]

يا مَنْ بأكنافِ فُؤادي رَتَعْ قَدْ ضَاقَ بي عَنْ حُبِّكَ المُتَّسعْ[3]
ما فيكَ لي جَدْوَى ولا ارْعِواء مَنْحِ مُطاعٍ وهَوًى مُتَّبعْ[4]

ولعل صاحب الترجمة هو الذي ألّف المقري في مناقبه الكتاب المسمى (نفح الطيب في مناقب لسان الدين بن الخطيب) والمؤلف من الموجودين بعد الألف، وقد وصف من محاسنه ما يشنف الأسماع. وقَتْلُه على الصفة المذكورة هو من تلك المجازفات التي صار يرتكبها قضاة المالكية، ويريقون بها دماء المسلمين بلا قرآن ولا برهان. وأما وجوده على شفير القبر محرقاً فلا ريب أن ذلك من صنع أعدائه، وليس بجرم ولا فيه دليل على صحة ما امْتُحِنَ به، فإنَّ الأرض قد قبلت فِرْعَون وهَامَان وسَائر أساطين الكفران.

---

(١) المِضْمَارُ: المكان تُضَمَّرُ فيه الخيل، أو تتسابق.
(٢) البَلْقعُ: الخالي من كلِّ شيء.
(٣) الأكناف: النواحي. رَتَعَ: أقام في خصبٍ وسعة.
(٤) الجدوى: العطية. ارعوى فلان: كفَّ وارتدع.